

## نابوليون الأول وحرب روسيا<sup>(١)</sup>

ان كل ما كان يحفُّ بنابوليون أوحى اليه المهاج الذي جرى عليه في تمثيل دوره ، وجعله يلقي على عاتقه عبء مسؤولية الحوادث الحاضرة والمستقبلية بدلاً من ان يتنبأ نفسه لتمثيل الدور المقضي عليه تمثيلاً انه لم يكن يأتي عملاً من الأعمال او يقترف جريمة من الجرائم او يباشر سرّاً من الأسرار البسيطة ، ألا ويبادر الناس الى التنويه بيساتته ان الألمان لم يجدوا شيئاً يروقه أفضل من الاحتفال بتذكار معركة ايناوا وارسناد ولم يكن هو وحده عظيماً ، بل كان أجداده واخوته وأولاد اخوته وأصهاره جميعهم عظماء . وكان كلُّ شيء يؤول بسهولة الى ان يزيل منه آخر أثر من آثار العقل ويعدّه لتمثيل دوره الهائل . ولما تمّ له الأمر كانت جميع القوى مستعدة لمناصرته

وباشر غزو المشرق فاتته الى الغاية الأخيرة وهي موسكو، فاستولى على تلك العاصمة وساق الى الجيوش الروسية متالف لم يكُ قد ساق مثلها الى الجيوش المعادية له من عهد موقعة اوسترليتز الى اليوم الذي جرت فيه موقعة واغرام وعضواً عن الصدفة والدهاء اللذين جعلاه يتنقل من انتصار الى انتصار جارياً الى الغاية المنصوبة له ، نلقى فجأة مجموع صدفٍ مما كسبه له من الزكام الذي أصابه في بورودينو الى الشرارة التي أضرمت النار في موسكو والبرد القارس في روسيا . وبدلاً من الدهاء نجد فيه ضعفاً وصغارة لم يذكر التاريخ شيئاً يماثلهما وكانت الغزوة تتقدم ولكن بشكلٍ معاكس، وصارت جميع الصدف معادية له بعد ان كانت من أحلافه . وحينئذٍ شهدنا حركة مخالفةً موجهةً من الشرق الى الغرب تشابه كل المشابهة الحركة التي سبقها

## (١٤٢) نابوليون الأول وحرب روسيا

وقد أعلنت حركة جديدة بمساعي عديدة جرت في السنوات ١٨٠٥ و ١٨٠٧ و ١٨٠٩ ، فتألفت عصاة كالعصاة الماضية وجعلت تكبر حتى صارت جماهير غفيرة وتألفت شعوب اوروبا الوسطى عند تلك الحركة التي كانت معتبرة تكراراً للحركة السابقة ، لأنه لم يكن ينقصها شيء لتماثلها مماثلة تامة من مثل التردد في اثناء الطريق وازدياد السرعة عند الاقتراب من الغاية . وأدركت باريس ، وهي الغاية الاخيرة لتلك الحركة ، وكان من وراء ذلك انكسار نابوليون وجيوشه

وان نابوليون ذاته لم يُعد شيئاً مذكوراً وصارت أعماله الاخيرة تستثير الشفقة عليه والنفور منه . ومع ذلك بدت صدقة جديدة تعجز الافهام عن ادراكها ، فان المتحالفين كانوا يبغضون نابوليون ويعتبرونه سبباً لجميع نكباتهم

وكان يقضى عليهم في ذلك الحين ، عند زوال مهابته وتقلص ظل قوته واتهام الناس له باقتراف الجرائم والعدو ، ان ينظروا اليه بنفس المقلبة التي كانوا ينظرون اليه بها قبل ذلك العهد بعشر سنوات وبعده بسنة واحدة ، اي ان يروا فيه لصاً نبذته الشريعة الا ان صدقة غريبة لم تجعل الناس يعتبرونه ذلك الاعتبار . ولكنه لم يكن بعد قد اكل تمثيل دوره . فان ذلك الرجل الذي كانوا يعتبرونه لصاً نبذته الشريعة أرسل الى جزيرة تبعده يومين عن فرنسا وأعطى تلك الجزيرة وعين لخدمته خفراء وخصص لنفقاته ملايين من الفرنكات لأسباب لا يعلمها الا الله وبدأت حركة تلك الشعوب تسكن ، وهدأت الأمواج الزائرة وعقبها في ذلك البحر الساكن تموجات لطيفة ركب منها سياسيون كانوا يتوهمون ان الفضل من ذلك السكون مرجعه اليهم

وعاد البحر الى الهيجان ، فاعتقد اولئك السياسيون ان الخلاف الذي نشأ بينهم كان أصلاً لذلك الهيجان ، وبناتوا يتوقعون انتشار حرب بين مواليهم وبنات لهم تلك الأحوال مازقاً لا مخرج له . بيد ان الأمواج التي كانوا يشعرون بدنوها منهم لم تأت من الجهة التي كانوا ينتظرونها ، بل كانت هي نفس الأمواج الآفة المذكورة آتية من باريس

وان ذلك الرجل الذي ألقى فرنسا في وهدة الخراب عاد اليها وحده دون ان تصبح الجنود ، ودون ان يكون لديه خطة معروفة يسير عليها ؛ وكانت حياته تحت رحمة كل خفير يلقاه في طريقه . ولكنه بصدفة غريبة لم يُمس بأذى . وهرع القوم لملاقاته باحتفاء خلافاً لما كان متظراً منهم ؛ وطبقت أصواتهم الفضاء بالتلهيل لذلك الذي كانوا بالأمس يقدفونه باللعنات ، والذي سيعودون بعد شهر من الزمان الى لعنه . ولم يجر ذلك إلا لأنهم كانوا لا يزالون محتاجين الى ذلك الرجل لاتمام الفصل الاخير . انتهى الفصل وتمّ الدور الاخير ، وأمر الممثل ان يخلع لباسه وينزع عنه خضابه لاستغنائهم عنه

وهو نفسه أظهر للملاطراً بكل وضوح حقيقة ذلك الشيء الخفير الذي كان البشر يعتبرونه قوة حين كانت يد الحوادث غير المنظورة تقوده  
وان مدبر الكائنات الحقيقي عند انتهائه من تلك الرواية أمر أهم الممثلين فيها ان ينزع عنه ما كان متنكراً به وأرانا اياه ، قائلاً : « انظروا ذلك الذي آمنتم به . واعلموا الآن اني أنا الذي جعلتكم تسيرون على الطريق التي سلكتموها .  
وليس هو ! »

الآن البشر الذين تعمي بصائرهم قوة الانجذاب لبشوا مدّة طويلة وهم لا يدركون الحقيقة

وانا نجد اموراً كثيرة مقدّرة في حياة الاسكندر الأول وهو ذلك الشخص الذي ترأس الحركة المعاكسة ، اي تلك التي جرت من الشرق الى الغرب . فما هي الصفات التي كان مزداناً بها ذلك الرجل لتمكّنه من تصييره اسواه نسبياً منسياً وتروّس تلك الحركة ؟

انه كان ولا مرأى قد ازدان بعاطفة العدالة وعني عناية حقيقية بشؤون اوروبا ولم يتعلق بأذيال امور لا طائل تحتها . وكان متحلّياً بصفات ادبية تفوق صفات الملوك المعاصرين له وذا اخلاق لطيفة تستميل اليه القلوب وقد شعر باهانة شخصية نالته من نابوليون

ان جميع هذه الاشياء المميزة كانت متجمعة عند الاسكندر الأول ، وقد حشدتها الصدف الكثيرة او الصدف المزعومة التي حدثت في حياته الماضية ، وساعدها كل شيء ، كتربيته واصلاحياته المبنيّة على أساس الحرية ؛ والمستشارين الذين كانوا يؤازرونه بصرف النظر عن اوسترليتز وتلسيت وأرفورت وكان هذا الرجل في اثناء الحرب الوطنية لا تئذاً بمقوّة الخمول ، لانه كان مستغنى عنه . ولكنه لما أصبحت الحرب الأوروبية مما لا يستغنى عنها ، برز في المواقف الخطيرة الى الموقف المعدّ له ، ليضمّ متفرّقي الشعوب الاوروبوية ويسير بها الى الغاية المعروفة

ادركت تلك الغاية . وبعد الحرب الاخيرة التي اتقدت نيرانها سنة ١٨١٥ كان لدى الاسكندر أعظم قوة يستطيع الانسان ان يصيها . وماذا فعل بتلك القوة الهائلة ؟

ان الاسكندر الاول معيد السلم الى اوروبا ، الذي هبت في صدره منذ حدثته نسمات الرغبة الحقيقية في جرّ الهنا ، والراحة الى رعيته ، والذي كان أول من أدخل الاصلاحات الموسومة بسمة الحرية الى بلاده ، ذلك العاهل الذي كان قابضاً بيديه على عنان سلطة مطلقة كان يقدر بالحقيقة ان يعمل ناير رعيته ونجاحها . وماذا يبدو لنا الآن ؟ بينما كان نابوليون في منغاه يرسم خطأً كاذبة ووهمية ليظهر السبيل الذي يمكنه ان يتهمجه لسعادة الانسانية لو كانت له السلطة على ذلك ، كان الاسكندر الذي كانت له تلك السلطة ينهض باعباء مهمته ، وهو شاعر بيد الله على قلبه ، ويعلم ان تلك السلطة هي من جملة الأباطيل ؛ ولذلك أعرض عنها وتركها في أيدي أشخاص محقرين ، ولم يكن يني عن ترديد هذه الكلمات : « ليس لنا المجد ولكن لك وحدك »

أنا انسان نظيركم ، فتركوني أعيش عيشة رجل بسيط لأتمكن من التفكير بنفسى وبالله

كما ان الشمس او كل ذرة من ذرات الاثير تنشى ككرة مستقلة بذاتها ، مع

انها لا تؤلف الا ذرة من ذلك الكائن العظيم الذي يعجز الانسان عن الوصول اليه ، فان لكل انسان غاية خاصة وفي الوقت عينه يخدم الغاية المشتركة التي يقصر العقل البشري عن الوصول اليها

ان النحلة التي تطير عن الزهرة تقع على ولد وتلسهه ، فيصير الولد يخاف النحل ويتوهم ان غاية النحل في هذا العالم لسع الناس  
ان الشاعر يعجب بالنحلة التي تمتص من كاس الزهرة ، ويصير يتوهم ان غاية النحل امتصاص شذا الازهار

ان المشتغل بتربية النحل يلاحظ النحلة وهي تجمع اللقاح وعصير النباتات لتغذية اليعسوب وصغار النحل ويصير يتوهم ان غاية النحل بقاء الجنس  
ان النباتي يلاحظ ان النحلة تنقل اللقاح من احد النباتات الى عضو التانيث في زهرة اخرى لتلقيحها ، فيصير يتوهم ان غاية النحل التلقيح  
ان نباتياً آخر يلاحظ ان النحلة تساعد على نقل النباتات من مكان الى مكان آخر ، فيصير يتوهم ان غاية النحلة نقل تلك النباتات

ولكن الغاية الاخيرة للنحلة ليست في الغايات الاولى والثانية والثالثة التي مررنا بها ، والتي يستطيع عقل الانسان ان يكتشفها  
وكما اكثر المرء من البحث عن حقيقة تلك الغاية الاخيرة تجلي له ان عقله يرتد كلبلاً عن الوصول اليها

ولا يمكنه الا ان يلاحظ العلاقة المشتركة بين حياة النحلة والحوادث الطبيعية الاخرى . فهو يبقى محصوراً في نفس الدائرة الضيقة للبحث عن غايات الحوادث والاشخاص الذين يذكروهم التاريخ فيظل عاجزاً عن البلوغ الى الغاية الاخيرة  
( عن تولستوي )  
الباس الحويك